1 تسبيح يَشد الملك

دعوة تريد أن تستقيم إلى الله.

فعليها أن تدلف من باب الاستقامة إذن. وبابها المحراب.

وهكذا، فإن على الدعوة الإسلامية في كل وقت أن تبدأ عملها من المسجد، فتصلح العقيدة، وتعلم دعاتها أدب التعامل الإسلامي، وبذلك تسقط تلقائيًا كل المقاييس الأخرى في التفاضل، من جودة الكتابة، وبلاغة اللسان، وبهرج الشهادات الجامعية.

وإنما جماع الخير في ارتياد المسجد، وذخيرة المسجد نِعْم زاد الانطلاق. ولقد أحصاها الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهما، فقال:

" من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثماني خصال:

آية محكمة

و أخًا مستفادًا

و علمًا مستطرفًا

و رحمة منتظرة

وكلمة تدله على هدى، أو تردعه عن ردى. وترك الذنوب حياء، أو خشية " [1].

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣\٣.

" فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع، هو فكر واحد لكل الرءوس، ومن ثم فهو حل واحد لكل المشاكل. وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم ، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله " [1].

" فما المسجد -بناء ولا مكانًا- كغيره من البناء والمكان، بل هو تصحيح للعالم الذي يموج من حوله ويضطرب، فإن الحياة أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها، وهذه كلها يمحوها المسجد؛ إذ يجمع الناس مرارًا في كل يوم على سلامة الصدر، وبراءة القلب وروحانية النفس، ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة مسبغة على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعار الطهر الذي يسمى الوضوء، كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخول المسجد " [2].

ولقد تفاعل الموفقون مع هذه الأعطيات التي تمنحهم إياها مساجدهم، فولعوا بها، وشدوا إليها شدًا أنطق الشاعر بالصدق فوصفهم بأنهم:

يمشون نحو بيوت الله إذ سمعوا

(الله أكبر) في شوق وفي جذل

---

(١) للرافعي في وحي القلم ١/ ٣٥٨-٣٥٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

أرواحهـــــم خـــشعـت لله في أدب
قلوبهـــــم مـن جـلال الله في وجـل
نجـــواهم: ربنـــا جئنـاك طائعـة
نفوســنا، وعــصينا خــادع الأمـــل
إذا ســجى الليــل قــاموه وأعيــنهم
مـــن خـشية الله مثـل الجائـد الهطـل
هــم الرجــال فــلا يلهـيهم لعـــب
عن الـصلاة، ولا أكذوبـة الكـسل[1]

ثم ما برح أئمة الموفقين يلحون في التوصية بذلك، ابتداء بالصدر الأول، كمثل عبد الله بن المبارك حين يقول:

اغتنـم ركعتـين زلفـى إلى الله إذا كنـت فارغـًا مستريحـًا
وإذا هممـت بالنطـق بالباطـل فاجعـل مكانـه تسبيحـًا[2]

و انتهاء بقادة الدعوة في هذا القرن، كمثل الإمام البنا حين يوصي أن:

" أيها الأخ العزيز :

أمامك كل يوم لحظة بالغداة، ولحظة بالعشي، ولحظة في السحر، تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملأ، فتظفر بخير الدنيا والآخرة. وأمامك يوم الجمعة وليلتها تستطيع أن تملأ فيها

(١) لياسين خليل في مجلة (التربية الإسلامية) العراقية ٥/ ٦٠٠ .
(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١/ ٢٨٦ .

يديك وقلبك وروحك بالفيض الهاطل من رحمة الله على عباده، وأمامك مواسم الطاعات وأيام العبادات وليالي القربات التي وجهك إليها كتابك الكريم ورسولك العظيم. فاحرص على أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين، ومن العاملين لا من الخاملين، واغتنم الوقت، فالوقت كالسيف، ودع التسويف فلا أضر منه "[1].

وكمثل الإمام بديع الزمان سعيد النورسي حين يخاطبك ويقول: " رُكِّبتَ من القصور والفقر والعجز والاحتياج، لتنظر بمرصاد قصورك إلى سرادقات كماله سبحانه، وبمقياس فقرك إلى درجات غناه ورحمته، وبميزان عجزك إلى قدرته وكبريائه، ومن تنوع احتياجك إلى أنواع نعمه وإحسانه.

فغاية فطرتك هي العبودية.

والعبودية: أن تعلن عند باب رحمته قصورك بـ(أستغفر الله) و(سبحان الله).

و فقرك بـ (حسبنا الله) وبـ (الحمد لله)، وبالسؤال. وعجزك بـ(لا حول ولا قوة إلا بالله) وبـ (الله أكبر)، وباستمداد.

فَتُظْهِر بمراتب عبوديتك جمال ربوبيته "[2]

وكمثل الإمام المودودي رحمه الله حين يتحدث عن بعث الرسل -عليهم السلام- لتحقيق غاية العبودية في الأرض ويقول: " انظروا

(١) مجلة الدعوة في دورتها الأولى عدد ٨ سنة ١٩٥١م.

(٢) المثنوي العربي لبديع الزمان نورسي ٢٨٣.

قليلًا في ما تحرى النبي ﷺ من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية، فقد قام بدعوة الناس – أولًا وقبل كل شيء – إلى الإيمان، وأحكمه في قلوبهم، وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها، ثم نشأ في الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقًا لمقتضيات هذا الإيمان تدرجًا بالطاعة العملية –أي الإسلام– والطهارة الخلقية –أي التقوى– وحب الله والولاء له – أي الإحسان. ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به، قام على القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الإلهي المنزل من الرب تعالى. ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنوا ولبوا دعوته من كل وجهة – بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم – مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي، وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله المخلصين الأوفياء أن ينصرفوا إليه، إذن، وبعد كل ذلك أخذ النبي ﷺ يرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين من الآداب والعادات المهذبة في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس، وما إلى ذلك من الشئون الظاهرة. وكأنني به فتن الذهب ونقاه من الأوساخ والأقذار أولًا، ثم طبع عليه بطابع الدينار، ودرَّب المقاتلين أولًا، ثم كساهم زي القتال. وهذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب، كما يبدو لكل من تأمل القرآن والحديث وتبصر فيهما "[1].

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ٧٢.

* أجب نبيك ﷺ

قال رسول الله ﷺ :

«من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه أحدهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة» (١).

وقال ﷺ : «من غدا إلى المسجد وراح أعدَّ الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح» (٢).

وقال: « أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرًا من الذي يصلي ثم ينام» (٣).

وعن جرير رضي الله عنه قال: « بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة» (٤).

وسأله ابن مسعود: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: « الصلاة على وقتها» (٥).

قال رسول الله ﷺ:

«ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأتي كبيرة، وكذلك الدهر كله» (٦).

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٣١.
(٢) صحيح البخاري ١ / ١٥٧.
(٣) صحيح البخاري ١/ ١٥٩.
(٤) صحيح البخاري.
(٥) صحيح البخاري.
(٦) صحيح مسلم ١/ ١٤٢.

وكانت آخر ابتسامة للنبي ﷺ في الدنيا: ابتسامته للصلاة، وذلك لما كشف ستر الحجرة يوم الإثنين فرأى أبا بكر يؤمّ الصفوف.

وحث على صلاة الفجر وصلا ة العشاء فقال: « **من صلى البردين دخل الجنة** »[1].

وقال - وقد نظر إلى البدر:

« إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠][2].

وقال ﷺ : « **الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتِرَ أهله وماله**» أي فقدهما، وفي لفظ: « **من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله** »[3].

فأنت أيها الداعية ما بين ترهيب ينذرك النبي ﷺ فيه حبوط العمل، وترغيب يُشوِّقك فيه إلى قصور الجنة ورؤية الله فيها، فأجب، وإنه لثمن يغري ويطمع ويحرص عليه قبل الكساد، وكن عند حسن ظن الفضيل بن عياض فإنه تحدى وقال: (**ما حليت الجنة لأمة ثم لا ترى لها عاشقًا**)، عاشقًا يخرج من أجلها في البردين، وقال له: إني أنا العاشق.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٣٧.
(٢) صحيح البخاري ١/ ١٣٧.
(٣) صحيح البخاري ١/ ١٣٧.

فإن وجدت من نفسك ثقلًا وتكاسلًا فهناك مخاطبة لطيفة يمكن لك أن تخاطب بها نفسك فتقول: هب أنك من العسكريين، أو من عمال المخابز، أو الصيادين أو..، أما كان يجب عليك التبكير في الاستيقاظ قبل الموظف والطالب طاعة للنظام العسكري أو تنافسًا في طلب الرزق؟ فالله سبحانه أحق أن يطاع، وصلاة الفجر أحق أن ينافس فيها. فبمثل هذه المخاطبة لنفسك يحصل الحث لها إن شاء الله إن تراخت واستأنست بالنوم.

وإذا ألممت بذنب أو خطأ فاستدرك بالركوع، فإن داود -عليه السلام- لما جاءه الخصم يختصمان في النعاج انتبه واستدرك، ووصف الله تعالى انتباهه فقال: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ [سورة ص] فجعل الاستغفار والركوع طريقة، يعلم بذلك الدعاة أن يركعوا.

* حرص الأولين على الصلاة

وكان السلف الصالح يستحبون الأناة في كل شيء، إلا في الصلاة، فقد قيل للأحنف بن قيس رضي الله عنه: (**إن فيك أناة شديدة**) فقال: (**قد عرفت من نفسي عجلة في صلاتي إذا حضرت حتى أصليها**)[1].

وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له: (**الصَّفِّي**)، لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة[2].

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٩٦.

(٢) تهذيب التهذيب ١/ ١٧٣-٤٤٧

ومثله: إبراهيم بن ميمون المروزي، أحد الدعاة المحدثين الثقات من أصحاب عطاء بن أبي رباح، وكانت مهنته الصياغة وطرق الذهب والفضة. قالوا: (**كان فقيهًا فاضلًا، من الآمَّارين بالمعروف. وقال ابن معين: كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها**) [(١)].

وقيل لكثير بن عبيد الحِمْصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط، وقد أمَّ أهل حمص ستين سنة كاملة، فقال: " **ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله** " [(٢)].

وقال قاضي قضاة الشام سليمان بن حمزة المقدسي، وهو من ذرية ابن قدامة صاحب كتاب المغني: " **لم أصلّ الفريضة قط منفردًا إلا مرتين، وكأني لم أصلهما قط** "[(٣)].

مع أنه قارب التسعين.

و الداعية السعيد من يتأمل ويقتدي.

* دعوة تتعلم من داود

وكان داود -عليه السلام- يسبح بالعشيِّ والإشراق، فسخر الله تعالى الجبال يسبحن معه، وقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [سورة ص] ، فوهبه الله هبة عظمى ذكرها، فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [سورة ص: ٢٠].

---

(١) تهذيب التهذيب ٨ / ٤٢٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٦٥.

و دعوة تدعي أنها إسلامية لا يشد ملكها اليوم وتغلب ما لم يسبح رجالها بالعشي والإشراق.

وإن التواصي بالصلاة لحسنة نقترفها يزيد الله لنا فيها حسنا ولابد لنا أن نجعلها كلمة باقية في عقبنا من أجيال الناشئة الجدد، فإن لم نفعل فإن عقد الدعوة سينفرط – لا سمح الله – انفراطًا ما له من فواق.

* * *

2 الدقائق الغالية

سجود المحراب، واستغفار الأسحار، ودموع المناجاة سيماء يحتكرها المؤمنون.

ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار، والنساء، والقصر المنيف، فإن:

* جنة المؤمن في محرابه [1]

ولقد منَّ الله على الناس بكثير من المباح الحلال يفند الرهبانية، ولكن المؤمن له لذة كلما توجه إلى ربه بصفاء روح، تتضاءل بجانبها لذة المباح، فيهجر الكثير منه حذرًا من كدر يعكر الصفاء الذي هو فيه.

جرب ذلك المؤمنون قديمًا، زمن العيش البسيط، وجربه المؤمنون اليوم، زمن المدنية المعقدة.

بل إن الصلاة في يوم هذه المدينة لأظهر في إضفائها السرور، فبينما يطيل التعقيد على الإنسان حياته الحاضرة، فيسأم، ويمل، ويضجر، تختصرها الصلاة إلى بضع ساعات فحسب، فيعيش في اطمئنان، وراحة بال، ولئن كان لنظرية آينشتاين في نسبية الوقت نصيب من

(١) شطر لوليد في مجلة التربية الإسلامية ٧/ ٦٣٧.

الصحة، فإن في الصلاة هذا النصيب، كما يشرحه مصطفى صادق الرفاعي ويقول:

" يا لها حكمة أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات، لتبقى الروح أبدًا إما متصلة أو مهيأة لتتصل، ولن يعجز أضعف الناس مع روح الدين أن يملك نفسه أنه متوجه بعدها إلى ربه، فخاف أن يقف بين يديه مخطئًا أو آثمًا، ثم هو إذا ملك نفسه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى، وأنها بضع ساعات كذلك، فلا يزال من عزيمة النفس وطهارتها في عمر على صيغة واحدة لا يتبدل ولا يتغير، كأنه بجملته – مهما طال – عمل بضع ساعات " [1].

فطول الحياة نسبي.. هو طويل جدا، مخيف مظلم للجاهلي.. وهو قصير، هين منير للمصلي.

وحياة الجاهلي ركود مستمر. وحياة المصلي حركة، تزيد صوابًا، أو تستدرك اعوجاجًا.

و إنها (الله أكبر) تنهي هذا الركود، وتؤسس الحركة (الله أكبر).

بين ساعات وساعات من اليوم ترسل الحياة في هذه الكلمة نداءها تهتف: **" أيها المؤمن: إن كنت أصبت في الساعات التي مضت، فاجتهد للساعات التي تتلو. وإن كنت أخطأت فكفِّر، وامح ساعة بساعة "** [2].

---

(١) وحي القلم ١/ ٣٥٩- ٣٦٤.

(٢) وحي القلم ١/ ٣٥٩ - ٣٦٤.

وأظهر حركة يولدها التكبير: حركة التمييز والفرقان، بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

فإنك إن قلت: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة].

استشعرت في كل ركعة طائفة من هذه الأصناف الثلاثة، وتخصص كل ركعة لمن ظهر منهم في زمن واحد، أو بلد واحد، فتجول في ركعات يومك بلاد الإسلام أجمع، وتستعرض تاريخ الإسلام أجمع.

ففي ركعة تذكر النبي ﷺ وصحبه الأطهار ﷺ مثلًا لمن أنعم الله عليهم، وتذكر أبا جهل ومسيلمة مثلًا للمغضوب عليهم والضالين.

وفي ركعة أخرى تذكر هودًا وصالحًا - عليهم السلام - مثلًا ممن أنعم الله عليهم، وعادًا وثمود من الهالكين.

وفي ركعة أخرى تذكر الحسن البصري وابن سيرين وابن المسيب ممن أنعم الله عليهم، وأهل الردة والجهم بن صفوان، والجعد بن درهم من المتخبطين.

وفي أخرى تذكر الإمام أحمد بن حنبل ورهطه من المحدثين الموفقين، وبشرًا المريسي وابن دؤاد من الظالمين.

وفي أخرى تذكر ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي من المصلحين، وأصحاب وحدة الوجود والفناء الموهوم والشطح والابتداع من المدلسين.

وفي أخرى تذكر الإمام البنا وعودة وسيد، وثباتهم أمام الطغاة المتجبرين.

وبذلك تعقل صلاتك، والمرء ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، وتجدد عهدك مع أجيال المؤمنين، وتنبذ المفسدين، وتلك هي حركة الإيمان، فإن الإيمان الحق ما أخذ منك الولاء، وتركك على المفاصلة.

* رجال مدرسة الليل

ولكن تمام التذكر يكون مع الهدوء والسكون.

فمن ثم كانت مدرسة الليل.

وكان ترغيب الله للمؤمنين أن يجددوا سمت الذين ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات] وإذا انتصف الليل، في القرون الأولى، كانت أصوات المؤذنين ترتفع تنادي:

يا رجال الليل جدوا ... رب صوت لا يرد

ما يقوم الليل إلا ... من له عزم وجِدُّ

و إنها حقا لمدرسة، فيها وحدها يستطيع رجالها أن يذكوا شعلة حماستهم، وينشروا النور في الأرجاء التي لفتها ظلمات الجاهلية.

و إنها تجربة إقبال يوجزها فيقول:

نائح والليل ساج سادل ... يهجع الناس ودمعي هاطل

تصطلي روحي بحزن وألم ورد (يا قوم) أنسي في الظلم
أنا كالشمع دموعي غسلي في ظلام الليل أذكي شعلي
محفل الناس بنوري يشرق أنشر النور ونفسي أحرق [1]

و إن دعوة الإسلام اليوم لا تعتلي حتى يذكي دعاتها شعلهم بليل، ولا تشرق أنوارها فتبدد ظلمات جاهلية القرن العشرين مالم تلهج بـ (يا قيوم).

ما نقول هذا أول مرة، وإنما هي وصية الإمام البنا حين خاطب الدعاة فقال:

" دقائق الليل غالية، فلا ترخصوها بالغفلة " [2].

أفعيينا أن نعيد السمت الأول، أم غرَّنا اجتهاد في التساهل والتسيب والكسل جديد؟

إن القول لدى الله لا يبدل، ولكنا أرخصنا الدقائق الغالية بالغفلة، فثقل المغرم ولم يجعل الله لنا من أمرنا يسرًا.

إن انتصار الدعوة لا يكمن في كثرة الرق المنشور، بل برجعة نصوح إلى العرف الأول، ومتى ما صفَت القلوب بتوبة، ووعت هذا الكلام أذن واعية: كانت تحلة الورطة الحاضرة التي سببتها الغفلة المتواصلة.

---

(١) ديوان الأسرار والرموز ٧٩.
(٢) مجلة الدعوة في دورتها القديمة عدد ٦٣.

ذلك شرط لابد منه.

وكأن النصر حُجب عنا لأننا نادينا من وراء الحجرات، وجهرنا رافعين أصواتنا نوجب على الله لنا هذا النصر بإدلال، نبيعه ونثبت لنا حقًا عاجلًا في الثمن من دون أن نقدم بين يدي بيعنا همسًا في الأسحار، ولا الدمع المدرار، وإنما النصر هبة محضة، يقر الله بها عين من يشاء من رجال مدرسة الليل في الحياة الدنيا، ولا يلت الآخرين المحصرين من ثمنهم في الآخرة شيئًا، ويوقع أجرهم عليه.

إن تعلم الإخلاص، وفضح الأمل الكاذب الدنيوي أجلى أعطيات مدرسة الليل، كما يقول وليد، وذلك ما توجب تربيتنا تركيزه وتعميقه في النفوس. قال، والحق ما قال:

ياليل قيامك مدرسة	فيها القرآن يدرسني
معنى الإخلاص فألزمه	نهجًا بالجنة يجلسني
و يبصرني كيف الدنيا	بالأمل الكاذب تغمسني
مثل الحرباء تلونها	بالإثم تحاول تطمسني
فأباعدها وأعاندها	وأراقبها تتهجسني
فأشد القلب بخالقه	والذكر الدائم يحرسني [1]

وأكثر من هذا؛ فإن من يتخرج في مدرسة الليل يؤثر في الأجيال التي بعده إلى ما شاء الله، والمتخلف عنها يابس قاس تقسو قلوب

(١) أغاني المعركة ٣٨.

الناظرين إليه، والدليل عند بشر بن الحارث الحافي منذ القديم، شاهده وأرشدك إليه، فقال:

" بحسبك أن قومًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قومًا أحياء تقسو القلوب برؤيتهم ".

فلم كان ذلك؛ أن لم يكن ليل الأولين يقظة، وليل غيرهم نومًا؟ ونهار الأولين جدًا، ونهار الآخرين شهوة؟

أتسبقك الحمامة؟

وإنه لقلب رقيق قلب الفقيه الزاهد أبي سهل الصعلوكي، يظهره تأنيبه لنفسه في قوله:

أنام على سهو وتبكي الحمائم ... وليس لها جرم ومني الجرائم
كذبت لعمرو الله لو كنت عاقلًا ... لما سبقتني بالبكاء الحمائم (١)

فإن الذنب لا يغسل إلا بدمع، والشجاعة تسقى بدموع الليل، وما عرف تاريخ الإسلام رجاله إلا كذلك، ولم يقل ابن القيم باطلًا في وصفه لهم بأنهم:

يحيون ليلهم بطاعة ربهم ... بتلاوة، وتضرع وسؤال
وعيونهم تجري بفيض دموعهم ... مثل انهمال الوابل الهطال
في الليل رهبان، وعند جهادهم ... لعدوهم من أشجع الأبطال
بوجوههم أثر السجود لربهم ... وبها أشعة نوره المتلالي (٢)

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٧١.
(٢) اغاثة اللهفان ٢٥٥.

وسَأَلَ عبد الوهاب عزام الليل عن أروع أسراره، فأبان جوابه عن إصابة المؤمنين والمذنبين في تحريهم إياه، واستمع لتحاورهما:

قلت لليل: كم بصدرك سر أنبئني ما أروع الأسرار؟

قال: ما ضاء في ظلامي سر كدموع المنيب في الأسحار[1]

أفَترى المؤمنين إلا مصدق بجواب الليل، فهو مسارع مستبق؟

أم ترى أهل البلاغة إلا في إذاعة لما قال؟ يستملون الناس:

فاز من سبح والناس هجوع

يدفن الرغبة ما بين الضلوع

و يغشيه سكون وخشوع

ذاكرًا الله والدمع هموع

سوف يغدو ذلك الدمع شموع

لتضيء الدرب يوم المحشر سجدة لله عند السَحَر[2]

و يلقنون المذنبين المخطئين طريق الجنة، فيستملون المسرف في أخرى أن:

عد إلى الله بقلب خاشع

وادعه ليلًا بطرف دامع

---

(١) ديوان المثاني ٣٥.

(٢) لوليد في مجلة التربية الإسلامية ٧/ ٦٣٦.

يتـــــــولاك بعفـــــــو واســـــــع
و يبـــــدل كـــــل تلـــــك الحـــــسنات
حـــــسنات أجرهـــــا لـــــن ينفـــــدا
كـــــل هـــــذا العفـــــو للعبـــــد المنيـــــب
ســـــابغا مـــــن خـــــالق الكـــــون الرحيـــــب
للـــــذي تـــــاب إليـــــه مـــــن قريـــــب [1]

* * *

(١) لوليد، في أغاني المعركة ٩٤.

3 الابتداء

كل ممارس للعمل التربوي الإسلامي الحركي يلحظ -لابد- ظاهرة سقوط البعض وتراجعهم، فأنت ترى داعية سالكًا مع السالكين، وتظن أنه سيثبت، ولكنه يخيب ظنك أثناء الطريق، بأن تصدمه رهبة أو رغبة، أو يستأسر لنداء نفس وهوى، فيغتر، ويستولي عليه التيه إدلالًا وامتنانًا، فيصيبه الفتور.

وربما استعصى تعليل مثل هذه الظاهرة حينًا، ولكن تفرّسنا في أنفسنا، والتنقيب عن الفقه التربوي في آثار رجال التربية الأقدمين بدأ يرينا ملامح من التفسير لها، إن وُعِيت حق وعيها لكان فيها بإذن الله ثبات القلوب، ولوُقِينا زلل الأقدام بعد ثبوتها.

* هو صفاء الابتداء

فأما الشاعر: فيشير إشارة عامة إلى تفسير مثل هذه الظاهرة، ويقول:

وكل امرئٍ -والله بالناس عالم- له عادة قامت عليها شمائله

تعوّدها فيما مضى من شبابه كذلك يدعو كل أمر أوائله

والشاهد فيه: الشطر الأخير، فكل أمر تغلب عليه الصفة التي بدأ بها.

ولكن أساتذة التربية الأوائل قربوا أدنى من الشاعر، فاتضح وانكشف لنا مذهبهم، بما فصلوا وعينوا من معنى أوائل الأمور.

منهم من صاغ ذلك في حروف قليلة شاملة، فقال: " **الفترة بعد المجاهدة: من فساد الابتداء** ".

ويريد بالفترة: الفتور.

فهو الابتداء إذن، أي الخطوات الأولى للداعية المسلم في طريق الدعوة الموصل إلى الله، تكون صحيحة، فيرتقي بلا فتور ونكوص، وإن فتر فبمقدار لا يتعدى أدنى ما أثر من سنّة النبي ﷺ. وتكون معيبة هذه الخطوات، فيفتر وينكص عن الارتقاء.

ولكن من أين يعترض الداعية الفتور إذا دفعه مربُّوه بقوة أول مرة؟

وكيف لا يتسارع في يومه وغده سير من قطع به أمسه مرحلة نحو غايته؟

ومن أيقن أنه يتبع رسولًا من أولي العزم ﷺ، فكيف لا يستمد من عزمه؟

فهي الخطوات الأولى إذن: من جعلناها له متقنة: ثبتت بعد ذلك قدمه، بما يشاء الله، ومن تركناه يضطرب فقد أعطينا لشيطانه المقص يقطع به حبل ما بيننا وبينه، يتربص لذلك غفلة.

فإن لم يحصل الشيطان على المقص، وفاتته المفاجأة، فإنه يقنع بأن يمسك طرف الحبل يفل خيوطه بتدريج ، ويلقي في نفس من اعوجت بدايته الدعاوي، ويريه قليل خيره وعمله كثيرًا، حتى يستولي عليه الغرور والتطاول، فيرتكس هالكًا.

وهذه العقدة الثانية للشيطان أبصرها آخر من الصالحين، ووصفها يحذرنا، فقال: **" إنما تتولد الدعاوي من فساد الابتداء، فمن صحت بدايته: صحت نهايته، ومن فسدت بدايته: فربما هلك "**.

بل يهلك في الأغلب، فإن مبنى البداية على التجرد، فإذا حرم من صفائه في الأول فإن بنيانه يظل مهتزًا مهما شمخ عاليًا، بل الخطر كل الخطر عليه في الحقيقة إذا شمخ، فإنه يسرع إلى التمايل عند كل نداء ببدعة أو دعوة لمغنم، لأن من شأن الشيطان أن يزين البدعة ويجملها، وأن من شأنه أن يستغل وقت الحاجة ليغري، ولئن تردد هذا الرجل الصالح فذكر مجرد الاحتمال واستعمل كلمة (ربما)، ولئن ترددنا فاقتصرنا على (الأغلب)، فإن ثالثًا قد جزم بذلك فقال:

"من لم يصح في مبادئ إرادته لا يَسلم في منتهى عاقبته ".

وما هو بنسيان منه لمشيئة الله تهدي وتثبت من يختار، ولكنه يتحدث عن تجربته في التربية، ويقدم تقريره عن نتائج تفتيشه واستقراء أحوال من عرفهم.

وهكذا، تكون عنايتنا بالابتداء خطًا بارزًا ظاهرًا في فنِّنا التربوي الحركي.

* وهي النية الحرة

وإنما يعنون بصفاء الابتداء معنيين، يتتابعان في توال فيتلازمان: النية الصالحة، والهمة العالية. حصرهما البحتري في شطر مبين وسماهما:

نفس تضيء، وهمة تتوقد [1].

والنفس المضيئة كناية عن النفس التي احتوت نية صافية، فهي تنير بما يكون لها من هذا الصفاء.

وهي: (النية الحرة) التي ذكرها البحتري أيضًا في بيت آخر [2]، فأحسن الوصف وأجاد، فكأنها حرة مما يقيد غيرها، من الأهواء والأطماع والمصالح، لم يستعبدها درهم ولا دينار ولا جمال أنثى، ولم تكن رقيقًا لمنصب أو شهوة.

فالداعية لا يصدر قط عن شهوة، ولا طلب مصلحة، وإنما له في كل حركة وسكنة تطلعات إلى الأجر.

وكذلك كان الصالحون.

وبهذا الوصف وصف هشام بن عبد الملك ابن عمه عمر ابن

(١) ديوان البحتري ١/ ٢٩.

(٢) ديوان البحتري ٦/ ٤٠.

عبدالعزيز الأموي رحمه الله فقال: " **ما أحسب عمر خطا خطوة قط إلا وله فيها نية** "[1]. ولذلك استطاع عمر في أقل من سنتين تقويم اعوجاج جيلين، وعلى داعية الإسلام اليوم ألا يستكبر عظم الانحراف الذي عمَّ بلاد الإسلام، فإنه – إن قَرن كل خطوة بنية مثل الراشد الخامس– سيهزم حزبين بإذن الله في أقل من سنتين.

ويتعاظم الخير في عقود المؤمنين مع الله كلما زاد تجردهم حين العقد، ولذلك رأت الدنيا عظم الخير في ولاية عمر بن عبد العزيز لما تجرد سليمان بن عبد الملك رحمه الله محض التجرد حين عقد له واستخلفه، وقال:

"**لأعقدنَّ عقدًا لا يكون للشيطان فيه نصيب**"[2].

بل العمل الصغير بالنية يعظم، كما يشير عبد الله بن المبارك في قوله: " **رُب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية** ".

ومعقود اللسان من الدعاة يصبح بالنية ناثرًا من فيه جواهر البلاغة الآسرة للناس، كما ينص على ذلك طب عبدالقادر الكيلاني في قوله: "**كن صحيحًا في السر تكن فصيحًا في العلانية**"[3].

وأما المُخلِط في نيته فيخلط عليه في أموره وسيرته، كان ذلك في التاريخ على أهل التخليط حتمًا مقضيًا، وهو المعنى الذي كشفه التابعي

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم ٣٠/ ٢٩.

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم ٣٠/ ٢٩.

(٣) الفتح الرباني ٦٤.

الجليل مُطرَّف بن الصحابي الجليل عبد الله بن الشخِير العامري في قوله: " **صلاح العمل بصلاح القلب، وصلاح القلب بصلاح النية، ومن صفا صُفّي له، ومن خلط خُلِّط عليه** ".

ونتيجة التخليط أن يضطرب القلب في فوضى، تعدم السكينة، و"**إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك، وتترك الفوضى في قلبك** "، كما يقول مصطفى صادق الرفاعي [(١)].

فاعرف سياسة النفس هذه أيها الداعية، وأتقِن وُلُوجها قبل ولوج سياسة الحكم، فإنه: " **فرض على العامل أن يعرف النية من الأمنية** "، كما قيل.

فهناك نية وهناك أمنية، والأمر كما قال يحيى بن معاذ: " **لا يزال العبد مقرونًا بالتواني ، ما دام مقيمًا على وعد الأماني** " [(٢)].

وما اختار أحد الأماني تقوده إلا كان أثقل ما يكون خطوًا، ووجد ثَم السراب الخادع، وعَدِم الماءَ وقت العطش، وأما المضيء النفس، ومن لا أمنية له من الدعاة، فإنك تجده سبَّاقًا إلى كل خير أبدًا، وتجده على ري دومًا فإنه إن كان ذا قوة استقى لنفسه، أو استسقى، فيجيبه الله بهطل من السماء، وإن كان مستضعفًا وجد وريثًا لموسى عليه السلام يسقي له ويزاحم الرعاع.

---

(١) وحي القلم ٢/ ٤٤.

(٢) تاريخ بغداد ٥/ ١٨٤.

* وهو قدم الهول

والهِمَّة قرينة النية، فلا شيء بعد النية قبلها، وكل الإتقان بعدها، ومن أكسبها من المربين تلاميذه عند خطواتهم الأولى، فقد ضمن لهم الاستمرار إن شاء الله ، وقد قيل: " **همتك احفظها، فإن الهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها صلح له ما وراء ذلك من الأعمال** ".

ويمثل لها ابن القيم بمَثل لطيف، فيقول: " **مثل القلب مثل الطائر، كلما علا بعد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات** "[1].

فكما أن الاستعلاء بالهمة يبقي القلب نظيفًا بريئًا من المعنى الخسيس مشغولًا بالعظام، فإنه أيضًا يقي القلب الآفات والأمراض وسهام الشيطان، كما تقي نهضة الجناحين الطائر سهام الصياد، ومهمة المربي المسلم: أن يعلم الناشئ هذه النهضة العالية في مبادئ محاولاته.

ونهضة الجناحين هي بدورها كناية عن النفس التي احتوت تصميمًا على حمل أثقال الدعوة إلى الله، فإن الجديد في سلك الدعوة إن فهِم الدعوة في الأول مجرد تزكية نفس، وصحبة أخيار، وبث أشواق، وفرصة تكافل، فإنه يحجم عن إنكار المنكر على الظالم، ويستعصي عليه فهم معادلة ابن يزدانيار في الفراسة، والتي فهمها من قبله الرجال، ويرجع عن الزحف يوم الزحف وقائمة أعذاره تحت أحد

---

(١) الجواب الكافي ٧٠.

إبطيه؛ أولها: أنه لم يُنذر بمثل هذا من قبل، ولا يحتوي هذا الشرط عقده، ولذلك حرص رجال التربية على أن تكون أول خطوة للسالك: خطوة هوْل، كخطوة السبعين من قدماء الأنصار ساعة بيعة العقبة حين أخذوا على أنفسهم أن يمنعوا رسول الله ﷺ مما يمنعون منه نسائهم وأبنائهم وأموالهم.

فهو هول الجهاد، أو هول الإنكار، وليس ما في التجافي عن دار الغرور ذات الشهوات والتقليل من الأموال والملذات بأقل من هذين الهولين.

فإن أحب الدنيا فإنما يحبها كحب محمد بن أحمد المعروف بابن رزقويه، ذلك الحب الذي يكشف عن همة عالية وراءه، والذي ترجمه مخاطبًا تلامذته:

"والله ما أحب الحياة في الدنيا لكسب ولا تجارة، ولكن لذكر الله، ولقراءتي عليكم الحديث" [1].

وإنما ذكر الحديث كمَثل لجنس الصالحات التي يجب على الداعية أن يحب الدنيا لأجلها لا لغيرها.

وعن أجيال السلف أخذ جيل المجددين في هذا القرن فقه الهمة ففهم الإمام حسن البنا أن الداعية الهمام: **" يبذل كل ماله، وكل دمه، وكل نفسه، في سبيل عقيدته التي آمن بها وعاش من أجلها "** [2].

---

(١) تاريخ بغداد ١/ ٣٥٢.

(٢) مذكرات الدعوة والداعية ٢٣٣.